

الإطار العلماني لمفهوم الحرية في الثقافة الغربية

د. إدريس مقبول

جامعة المولى إسماعيل بمكناس

تمهيد:

إننا من غير شك في حاجة إلى مقارنة تفسيرية لموضوع الحرية الدينية التي هي محور هذا المؤتمر، مقارنة تفسيرية نتحرر من خلالها كما يقول الدكتور المسيري من "إمبريالية المقولات"، بمعنى أن نتحرر من تلك المقولات والنماذج التحليلية الاختزالية الجاهزة والمستوردة من الغرب والتي تحمل قيمه وأفكاره وثمره تجربته التاريخية، والتي لا تخلو من تحيزاته ضدنا، بل وضد الإنسان بشكل عام⁽¹⁾، ولهذا رأينا أن نقارب الموضوع من خلال العناصر التفكيكية والتشريحية التالية.

الحرية والإطار الديني العلماني:

لا تفصل النماذج المعرفية المركبة التي نتبناها في هذا التحليل بين الأفكار والواقع الديني أو بين الظواهر الدينية والظواهر السياسية والاقتصادية، وإذا تأملنا جيدا وجدنا أن الخريطة المعرفية أو النموذج الإدراكي للحرية بشكل عام والدينية بشكل خاص يتأسس في المنظومة الغربية على ما يعبر عنه إيريك فروم في كتابه "التملص من الحرية" بالوضع التقابلي بين البروتستانتية والرأسمالية في مواجهة الكاثوليكية والسوق، فهو يعزو نشأة النازية إلى البروتستانتية والرأسمالية. فالبروتستانتية كانت مددا ثقافيا لما أصاب المجتمع الرأسمالي من تفكك، فالصورة البروتستانتية التقليدية للفرد الذي يقف وحيدا، هي معادل ديني للعزلة الرأسمالية في مواجهة المنافسين

⁽¹⁾ - المسيري عبد الوهاب: الإنسان والحضارة، دار الهلال، أكتوبر، 2002.

والسوق، وهي بدورها لم تقدم إلا "تحررا" سلبيا، فالبروتستانتية "تحرر" من عدوه الكنيسة الكاثوليكية ببنائها المؤسسي وشعائرها وقرابينها، ومن الخلاص الاجتماعي الذي تبشر به. فترتب على هذا أيضا أن الفرد صاحب السيادة Sovereign individual لم يتعلم كيف ينمو من خلال البناء الاجتماعي القائم على الأخذ والعطاء للذين لا غنى عنهما⁽¹⁾.

كما انه نتج عن هذا الوضع حالة من السيولة في فهم "الحرية"، إذ صارت من غير قيود ولا حدود ولا ضوابط⁽²⁾، لما ارتبط بالحديث عن الحدود من فكرة محاصرة الإنسان ومنعه من تحقيق إنسانيته بالاختيار .

ولقد ظل تصور الحرية "سائلا" ويتميز بقدر كبير من الميوعة التعريفية لا يوازيها ما ظل يحمله في ثناياه من تمييز دقيق بين جنس من البشر يستحقون هذه الحرية، وجنس آخر ليس أهلا لها. وذلك بسبب ما تجذر في النموذج الإدراكي من تمييز عنصري بين أفضلية الأبيض ودونية الأسود (الإفريقي والمسلم) مثلا. وهو تمييز يحمل من الدلالات الرمزية الدينية في المسيحية التي ساوت بين الخطيئة والسواد والفضيلة والبياض. وقد تعمق هذا الاتجاه المسيحي في الثقافات البروتستانتية (في الشمال) لأن الشماليين كانوا أكثر بياضا وشقرة من سكان البحر الأبيض المتوسط من الكاثوليك (وسنذكر فيما بعد قصة الإساءة للنبي الآتية من الشمال).

بالإضافة إلى ما ذكرناه يبدو أن النظرة المادية ذات النزعة العلمانية في الغرب أشاعت في روح العصر، اقتناعا ضمنا بأن المقدس يعيق التقدم⁽³⁾،

⁽¹⁾ - المسيري: نفسه، 277. ويراجع أيضا كتابه: العالم من منظور غربي: دار الهلال، فبراير 2001.

⁽²⁾ - أزايا برلين: حدود الحرية، ترجمة جمانا طالب، دار الساقي بيروت، 1992. وسري نسيبة:

الحرية بين الحد والمطلق، دار الساقي، ط1، 1995.

⁽³⁾ - رفيق حبيب: المقدس والحرية، دار الشروق، ط1، 1998. ص9.

ذلك لأن مفردات هذه النظرة معادية للمقدس، فما بالك إذا كان مقدس جماعات بشرية تأتي في الترتيب المتأخر على لائحة الرؤية العلمانية الغربية. وفي الغرب كانت التوجهات العلمانية هي السبيل الحقيقي لفتح باب "التقدم" لأن تنحية الدين جانبا عن السياسة أولا، وعن الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا، ثم عن الاجتماع وأخيرا عن الحياة، تلك التنحية التي تزامنت مع تأليه العقل حتى يبدع أساليب ومناهج للاستهلاك تحقيقا لمبدأ اللذة والسيطرة.

إنه ليس صحيحا كما يقول رفيق حبيب أن الحضارة الغربية العلمانية باتت بدون مقدس، بل هي بلا ضمير مقدس، فنزع القداسة عن الدين والأخلاق والضمير أو بمعنى آخر تنحية هذه التكوينات المعنوية كان وما زال يعني أن القداسة تم سحبها من مجال المثال المتجاوز للمادة إلى المادة نفسها، فالحاصل أن اللذة أصبحت مفهوما مقدسا، وكذلك مجتمع الوفرة والاستهلاك وكل هذه المنظومة المادية، لذلك فالعقل الحر يمارس حرته من خلال اعترافه الضمني بقداسة الرؤية المادية، فأصبح حرا من الضمير، وأسيرا للرؤية المادية، لذلك فإن أي تفكير في نزع القداسة عن المادة، يعتبر تفكيرا ظلاميا وخارج العصر¹.

الحوار ومحو ثقافة الغير:

معلوم أن الاختلاف الفكري بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب، كما يحلو للبعض أن يعبر، هو اختلاف تبرره المنطقات كما تبرره النهايات. غير أن هذا الاختلاف يصير إلى التسلط والبغي وإيقاع الظلم من إحدى الثقافتين على الأخرى بدعوى أن الثقافة الغربية أكثر تقدما وأقرب إلى الصواب والعقل من غيرها، إن لم نقل إنها تدعي امتلاكها للحق في الحكم على معتقدات الآخرين وتسفيهها، مما يدفعنا لنعت الثقافة الغربية "بالباغية".

¹ - رفيق حبيب: المقدس والحرية، مرجع سابق، ص 11.

لتلبسها بهذا الوصف وركوبها لمتنه في الممارسة العملية من خلال تشريع التحكم وتسويغ الاحتلال للغير⁽¹⁾ من منطلق "الواجب في تربية المخالف على القيم الكونية الغربية" متجاهلين أن هذه الكونية سياقية وليست مطلقة قابلة للتعميم.

إن ما شهدناه منذ الحادي عشر من سبتمبر ونشهده إلى اليوم من تفاعلات بين البغي الصهيوني وموجات الرفض الإنساني هنا وهناك لهذا التسلط يعطينا انطبعا بأن الثقافة الباغية لا تصدر إلا عن وقاحة ثقافية" قد لا تكتفي برفع التصلب في الاختلاف الفكري إلى أعلى الدرجات، بل تتعداه إلى أن تخط خطا يفصل بينها وبين باقي أمم العالم، بحجة أنها هي التي تنتج الفكر وتستحق أن تنتجه، في حين أن سواها لا ينتجه ولا يستحق أن ينتجه، فتدعي أن مفاهيمها تعلو على مفاهيم الأمم الأخرى بوجه مطلق، وأنها تنزل منزلة كليات كونية يتعين عليها الأخذ بها كيفما كانت ظروفها، كما تدعي أن أحكامها تعلو على أحكام هذه الأمم بوجه مطلق⁽²⁾. وهي في ذلك تضرب على نفسها حصارا من غير أن تعي كما يقول كلود ليفي شتراوس "أن الإسهام الحقيقي للثقافات لا يكمن في قائمة اختراعاتها، بل في الفارق المميز الذي تكشف عنه فيما بينها. إن الشعور بالعرفان والتواضع الذي يستطيع كل عضو من أعضاء ثقافة معينة، بل يجب عليه، أن يستشعره نحو جميع الثقافات الأخرى، لا يمكن أن يتأسس إلا على الاقتناع التالي: إن الثقافات الأخرى

⁽¹⁾ - من الأعمال الغربية والموضوعية المهمة في هذا الصدد والتي تكشف عن النيات التوسعية والهيمنية يمكن قراءة: سول لاندوا: الإمبراطورية الاستباقية، الدليل إلى مملكة بوش، ترجمة ليلي النابلسي، شركة الحوار الثقافي، 2005.

طه عبد الرحمن: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء
⁽²⁾ - المغرب، ط1، 2005، ص163.

مختلفة عن ثقافته اختلافاً تتنوع أشكاله أشد ما يكون التنوع، وذلك حتى وإن كان لا يدرك طبيعة هذا الاختلاف"⁽¹⁾.

النموذج الإدراكي الغربي يتسلح بالإلحاد وينافح به عن الحداثة المادية، ويتمترس بالعلمانية ويبني بها مسلماته من قبيل حرية الرأي والتعبير، ليأسس بها ضروباً من التهجم على المقدسات والمعتقدات في العالم الذي ما تزال تحتفظ الأمة الغربية في ذاكرتها بإمكان عودته إلى سطح الحياة بعد أن قضى زمناً في طي التاريخ. إنها تعمل من أجل هذا الهدف التدميري بمحو ثقافة الغير *Déculturation*، من منطلق قصورها وضعفها عن أداء أدوارها التي ترسمها ثقافة البغي ذات البعد الواحد *One-dimensional* الاستهلاكي كما وصفها هربرت ماركوز⁽²⁾.

أصل التحرر في النسق الغربي:

النموذج المعرفي الغربي يعتاش على الرفض والثورة على المقدس، فقد "ثار الإنسان على الإله كما فعل البطل الخرافي في اليونان برومثيوس من قبل حين سرق النار المقدسة من آلهة جبل أولمب، ليصبح رمزاً لتحرير الإنسان من وصايا الآلهة، أصبح الإنسان إله نفسه، خالق نفسه"⁽³⁾. وهكذا صارت الأمة الغربية التي تحمل هذا النموذج المعرفي من تحطيم معتقداتها إلى تحطيم معتقدات غيرها، مما جر عليها ويلات ومصائب من دفاع الجماعات الإنسانية بشراسة عن أنفس وأقدس ما تملكه وهو دياناتها وروحها

¹ - C.L.Strauss. *Antropologie Structurale*, 2 PLON, 1973, P417.

(5) - عبارة تُرد في كتابات هربرت ماركوز أحد مفكري مدرسة فرانكفورت، وتعني «الإنسان البسيط غير المركب». والإنسان ذو البعد الواحد هو نتاج المجتمع الحديث، وهو نفسه مجتمع ذو بُعد واحد يسيطر عليه العقل الأداتي والعقلانية التكنولوجية والواحدية المادية؛ وشعاره بسيط هو التقدم العلمي والصناعي والمادي وتعظيم الإنتاجية المادية وتحقيق معدلات متزايدة من الوفرة والرفاهية والاستهلاك.

(3) - عبد السلام ياسين: الإسلام والحداثة، مطبوعات الهلال وجدة، ط 1، 2000، ص 159.

الشيء الذي لم تستسغه العقول الغربية المتواقحة حين تستفز مشاعر غيرها بالسخرية من رموزها الدينية معتقدة أو متجاهلة أن هناك خطوطا حمراء تقتضي الأخلاق الإنسانية قبل المساطر القانونية تجنب العبث بها احتراماً للآخرين ولهوياتهم وتقاليدهم.

إن المنظومة الثقافية الغربية تتناسى فلسفة الاختلاف التي دعا عدد من فلاسفتها (دريدا وفوكو) إلى الأخذ بها واحترامها، بل وجعلها بعضهم فلسفة الحداثة وما بعدها، وذلك أن المعرفة الإنسانية ليست واحدة في كل زمان ومكان، وأن أبناء الثقافات المختلفة يختلف بعضهم عن بعض في رؤاهم الميتافيزيقية وفي معتقداتهم عن طبيعة العالم وسيره ومصيره، وطبيعة الإنسان مفهوما وسلوكا ورسالة... إلخ، وكل ذلك يستدعي احتراماً وجودياً للمعتقد (الإنسان) والمعتقد (الأفكار والديانات) ⁽¹⁾.

والنموذج المعرفي للأمة الغربية يفتح عين الباحث على أمة إمبريالية في جوهرها باعتبارها نظاماً من الاغتصاب لحقوق الآخرين في الوجود على شرطها ووصفها، وهي تتصور أن ما تحاول إقناع العالم به من سلوكات توافقية يندرج ضمن آليات التمدين Urbanisation، وتتناسى أنه كانت هناك بغداد والقاهرة وفاس ومراكش وغيرها حواضر ضخمة عندما لم تكن هناك لا لندن ولا باريس ولا كوبنهاجن، وكانت نيويورك غابة متوحشة عذراء، لم تكن

(1) - يقتضي هذا الفهم التحرر من هيمنة أطر وأنماط التفكير التقليدي الغربي لتفسير الاختلاف تفسيراً علمياً وموضوعياً، ويقتضي أيضاً العمل على صياغة سياسة تعليمية هدفها بناء عقول يكون أساس تفكيرها مرونة دينامية وانفتاحاً على الآخر وشفافية وقدرة منهجية على فهم المشكلات مع الإيمان بالإنسان وبمشروعية التنوع والاختلاف وضرورة الاحترام المتبادل على صعيد فردي ومحلي وكوكبي، أو كما يقال صوغ محيط عقلي تنويري جديد، وبناء عالم جديد أو ثورة فكرية لعقل جديد غير منغلق على ذاته، بل عقل يسع الكون برحابته تأسيساً على تفكير علمي أو عقلانية نقدية. للمزيد من التفاصيل، يراجع: ريتشارد إي. نيس: جغرافية الفكر، كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف... ولماذا؟، ضمن عالم المعرفة، ع312، 2005، الكويت.

شيئا مذكورا في تاريف الحضارات التي فعلت في التاريخ العالمي⁽¹⁾. كما تتناسى أو لنقل تصر من موقعها المركزي وتجتهد في طمس الحلقة الوسيطة من إشعاع الإبداع الإنساني الإسلامي الذي لولاه لما كانت هناك لهم نهضة، التوافق يدعو للكذب الأكاديمي والتزييف المتعمد على التاريخ الذي يمتنع فيه ربط البداية اليونانية بالاستئناف الأوربي الموهوم من غير القرون الثمانية المهملة في تاريخ العقل الإنساني.

إن إنعام النظر في ما جرى ويجري من إقدام بعض الجهات الإعلامية الغربية الصليبية على نشر صور كاريكاتورية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على صفحات مجلاتها وقنواتها ومواقعها الإلكترونية، وإصرارها على عدم الاعتذار عن سلوكها البعيد عن الحضارة والأدب العام، بل وتأكيدا على مواصلة نشره هنا وهناك، والدفاع عن ملابساته الخاطئة تحت شعار حرية التعبير والرأي المقدسين في منظومة ثقافية مفلسة متناقضة، لأدل على إفلاسها من عجزها عن اختبار صرامتها بالاجتراء على السخرية من الهولوكوست. كل أولئك يعكس أن الأمة التي تتردى في مهاوي وقاحة الإنكار الصدامية لا تفتأ تثبت أنها على حق فيما تعتقد وغيرها على باطل، وأنها على صواب فيما تقول وغيرها على خطأ، "كما أنها لا تغضب من شيء غضبها من معاملة منكرها بمنكر مثله، فإذا كان تصرفها مع أفكار غيرها، على رجحان صوابها، ما نراه من إنكار، فكيف حالها مع فكره الذي ينكر حقها في أن تكون لها أفكار تخصها، مستهترا بوجودها الفكري كما تنكر هي حقه في أن تكون له أفكار تخصه، مستهترة بوجوده الفكري"⁽²⁾.

(1) - يراجع، سيرج لاتوش: تغريب العالم، ترجمة خليل كلفت، النجاح الجديدة، ط2 البيضاء، 1999، ص74.

(2) - طه عبد الرحمن: م.س، ص164.

وتلكم بعض مآزق الحرية على ما تعرضه الثقافة الغربية وتدافع عنه، فلا تلتفت إلا وقد غرقت في تناقضات لا تنتهي إلا بمآس وأزمات تستغلها الأيدي الصهيونية لصالح أجندتها في حربها على الإسلام والمسلمين.

فما موقع الصهيونية يا ترى من الحدث؟

ذكرت بعض المصادر ⁽¹⁾ التي تابعت جذور الحادثة أنه أجري استفتاء من قبل الاتحاد الأوروبي حول الدولة الشريرة الأولى في العالم، فأجمع الأوروبيون بمن فيهم سكان شمال العالم على أن الدولة العبرية هي أخطر دولة على السلام العالمي، وبعد هذا الاستطلاع طالب وفد الوكالة اليهودية العالمية الأمين العام للاتحاد الأوروبي ساعة نشر الاستطلاع (رومانو برودي) بأن يلغي هذا الاستطلاع، وحاول الوفد اليهودي إقناع (برودي) بأن المسلمين الإرهابيين هم الأخطر على أوروبا والعالم، وأن المواطنين الأوروبيين من أصول إسلامية هم الذين جعلوا الاستطلاع في منحى مضاد للدولة العبرية. ومنذ تلك اللحظة بدأت كبريات الجرائد ووسائل الإعلام المرئية المملوكة بنسبة تسعين بالمائة ليهود في شمال أوروبا في تحقير الهوية الإسلامية والثقافة الإسلامية التي كانت تعتبر، ولا زالت ثقافة كراهية وتحامل على السامية، وبات واضحاً أن هناك حملة متكاملة الأبعاد ومخططاً لها سلفاً ضد الإسلام والمسلمين وبشكل استفزازي.

ففي السويد أطلق قسّ سويدي يدعى (رونارد سوغارد) تصريحاً مفاده أن محمداً الرسول العربي معقّد ومزواج ومحبّ للفتيات القاصرات، وتبين أنه تلقى الضوء الأخضر من الكنيسة الإنجيلية من كاليفورنيا - كنيسة المحافظين الجدد - وتزامناً مع هذا التصريح طالبت إذاعة دانماركية محلية

¹ - يراجع مقال: يحيى أبو زكريا: خلفيات التحول السيء للدانمارك ودول شمال أوروبا، ضمن مجلة البيان، 2006.

وتلكم بعض مآزق الحرية على ما تعرضه الثقافة الغربية وتدافع عنه، فلا تلتفت إلا وقد غرقت في تناقضات لا تنتهي إلا بمأس وأزمات تستغلها الأيدي الصهيونية لصالح أجندتها في حربها على الإسلام والمسلمين.

فما موقع الصهيونية يا ترى من الحدث؟

ذكرت بعض المصادر ⁽¹⁾ التي تابعت جذور الحادثة أنه أجري استفتاء من قبل الاتحاد الأوروبي حول الدولة الشريرة الأولى في العالم، فأجمع الأوروبيون بمن فيهم سكان شمال العالم على أن الدولة العبرية هي أخطر دولة على السلام العالمي، وبعد هذا الاستطلاع طالب وفد الوكالة اليهودية العالمية الأمين العام للاتحاد الأوروبي ساعة نشر الاستطلاع (رومانو برودي) بأن يلغي هذا الاستطلاع، وحاول الوفد اليهودي إقناع (برودي) بأن المسلمين الإرهابيين هم الأخطر على أوروبا والعالم، وأن المواطنين الأوروبيين من أصول إسلامية هم الذين جعلوا الاستطلاع في منحى مضاد للدولة العبرية. ومنذ تلك اللحظة بدأت كبريات الجرائد ووسائل الإعلام المرئية المملوكة بنسبة تسعين بالمائة ليهود في شمال أوروبا في تحقير الهوية الإسلامية والثقافة الإسلامية التي كانت تعتبر، ولا زالت ثقافة كراهية وتحامل على السامية، وبات واضحاً أن هناك حملة متكاملة الأبعاد ومخططاً لها سلفاً ضد الإسلام والمسلمين وبشكل استفزازي.

ففي السويد أطلق قسّ سويدي يدعى (رونارد سوغارد) تصريحاً مفاده أن محمداً الرسول العربي معقّد ومزواج ومحبّ للفتيات القاصرات، وتبين أنه تلقى الضوء الأخضر من الكنيسة الإنجيلية من كاليفورنيا - كنيسة المحافظين الجدد - وتزامناً مع هذا التصريح طالبت إذاعة دانماركية محلية

¹ - يراجع مقال: يحيى أبو زكريا: خلفيات التحول السيء للدانمارك ودول شمال أوروبا، ضمن مجلة البيان، 2006.

بطرد المسلمين كل المسلمين من الدانمارك، وتلاقياً مع ذلك خرج علينا رئيس الحزب المسيحي النرويجي بتصريح يتهم فيه محمداً الرسول العربي بتخريج إرهابيين ودفع الأطفال إلى الحروب، وأصبحت الكلمة والصورة ضد الهوية الإسلامية، وحتى المؤتمرات التي انعقدت في دول شمال أوروبا لم تخلُ من نفَس كراهية المسلمين؛ ففي مؤتمر حظر الإبادة الذي انعقد في السويد زُجَّ باسم المسلمين الساعين . حسب أحد المحاضرين . إلى إبادة البشرية برمتها من خلال إقامة دولة إسلامية عالمية على أساس الخلافة الإسلامية؛ وحسب قول هذا المحاضر فإن المسلمين ومن خلال الإسلام الراديكالي يهدفون إلى إبادة كل الأجناس وكل الديانات، وفكرهم قائم على تدمير الآخرين وإزالتهم من الخارطة الكونية كما قال .

وقد انضمَّ إلى هذا المحاضر اليهودي (هنري آشر) المقيم في السويد والمتخصص في طبِّ الأطفال؛ حيث أشار إلى أنَّ المسلمين في السويد يعادون السامية بشكل كامل، وكثيراً . كما قال آشر . ما نصادف كراهية مطلقة لليهود وسط الأحياء الآهلة بالمهاجرين المسلمين في مختلف المحافظات السويدية .

هل نتصور كيف يكون رد فعل اليهود لو أن الجريدة قامت فسخرت من الخرافات الإسرائيلية التلمودية التي تتميز عن خرافات الشعوب بإغراقها في السخافة، حيث "الشامير" تلك الحشرة الصغيرة التي تشق الصخر بمجرد النظرة، والوحش الضخم "البهموت" الذي يرعى كل يوم حشيش ألف جبل، ذلك الوحش الذي أخصاه الله ليمنع توالده حتى لا يفسد نسله الأرض كلها، وأنثى "اللفيتان" التي قتلها الله فأحاطت جثتها بالأرض!!

لقد اقترن نشر الصور الكاريكاتورية بافتتاحية عبّرت فيها الصحيفة الفرنسية بوضوح، بأنها تتحمّل تبعات إعادة نشر الرسوم الكاريكاتورية المثيرة للجدل، وأنها مستعدة لدفع الضريبة في سبيل حرية التعبير، مضيعة

إن كان الإسلام يحرم نشر صور محمد وصور الله بدعوى تحريم التجسيد، فإن هذا القانون لا يلزم غير سكان الضفة الأخرى، هؤلاء الأسرى داخل أفكارهم، ولا يلزم مجتمعات ديمقراطية لائكية، بيد أن هؤلاء غير قادرين على استيعاب هذه الحقيقة، مسترسلة في القول نحن لا نعتذر أبدا من أجل أن نكون أحرارا في التفكير وفي الكتابة وفي القول، ولنا الحق في رسم محمد، ورسم الله، والمسيح ويهوه، وبوذا وهذا يسمى حرية التعبير في بلد لائكي، ولئن غضب هؤلاء المؤمنون بديانتهم بجانب ثقافات أخرى في بلد دولته دون ديانة رسمية، فإننا أيضا نكون قطعيين في ممارسة حرية التعبير، وفي ظل هذا اللاتسامح الديني الذي لا يحتمل أي نقد، يجب أن تقع ثورة على المفاهيم المكبلة للعقل، وتواصل الصحيفة المتواقة افتتاحيتها مستخلصة القول، ليس لأن الإسلام يحرم أشياء على أتباعه، يفرض على غير المسلمين الخضوع لقوانينه.

إن هذه النظرة الغربية هي جوهر التخلف الذي حجبه ركام من الملابس التاريخية، والتنوع الهائل للأحداث الطارئة، وضعف ردود الفعل، وهذه النظرة في تصورنا جهل باعتبار الجهل اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به كما يقول أهل الفلسفة، وليس كل من لا يعلم جاهلا بإطلاق، ولكن الجاهل في الحقيقة هو التارك لطلب حقائق الأشياء والمعتقد لها على ما يناسب هواه البعيد عن الحق، وكيف لا يكون تخلفا وجهلا بالمقياس العلمي وتواقحا بالمقياس القيمي الأخلاقي اللذين يقتضيان معا أن الحقوق في الوجود لبني البشر متساوية، كما هي حقوقهم في الكون على ما يرتضون من غير أن يكون لكيفيات كونهم أثر على كون الآخرين بشكل من الأشكال. إنه لا يمكن أن ننشئ حوارا أو نستأنفه ما دام الآخر يلبس دروع الصليبية الامبريالية، أو يعتقد في الصدامية الاستعلائية، لأنه بالاقضاء يكون مفهوم حرية الرأي مفهوما مغشوشا أو لنقل شائها

ومنقوصاً، لأنه لا حرية بدون مسؤولية⁽¹⁾ وقيود وضوابط منهجية وأخلاقية⁽²⁾، وإلا صرنا إلى المغالطة والتغريب والأنانية، واستحال التواصل الحضاري إلى كذب وغش وتجريح وملاججة.

حرية التعبير الغربية والمقدس في الميزان:

لو شئنا أن نذهب بالقارئ العزيز لنعرفه حقيقة ما عليه الوجه العاري للحضارة الغربية من زيف وادعاء لا يكاد يصمد أمام أصغر اختبار، لتطلب منا ذلك أوقاتاً وأوقاتاً⁽³⁾. وقبل أن نخوض فيها نود أن نشير إلى أن النماذج هي في الحقيقة دليل إخفاق مسيرة النهضة الأوربية بعد التنوير والحدثة في الوصول إلى تحرير الإنسان فعلاً، وهو الإخفاق الذي تُعتبر كلمة فيلسوف ما بعد الحدثة الفرنسي ميشيل فوكو خير شاهد عليها حين قال: إن الأنوار التي خلقت الحريات هي التي خلقت السلاسل والأغلال أيضاً.

خذ معي في البداية حرية الصحافة والإعلام، إذ لا أحد ينسى قصف مركز قناة (الجزيرة) في كابول، وقتل العديد من الصحفيين في العراق، وأبرزهم (طارق أيوب)، ثم إغلاق مكتب (الجزيرة) في بغداد، والأمر بسجن مذيعيها الشهير (تيسير علّوني) في مدريد ومصوّرها (سامي الحاج) في كوانتانامو. وأخيراً ما كشفت صحيفة (ديلي ميروور) البريطانية، وتأكيد رئيس تحريرها المشارك (كيفين ماغواير) من أن لدى صحيفته محاضر موثقة تكشف أن الرئيس الأمريكي (جورج بوش) أبلغ رئيس وزراء بريطانيا (توني بليز) خطة قصف قناة (الجزيرة). ولم تصمد حرية التعبير أمام حق قناة

¹ - سامي نصر لطف: الحرية المسؤولة في الفكر الفلسفي الإسلامي، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس.

² - يراجع: عبد المجيد النجار، درو حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1992، 45.

³ - يراجع أحمد محمد الدغشي: حرية التعبير في الغرب الحقيقة والوهم، مجلة البيان، 2006.

(المنار) اللبنانية التابعة لحزب الله في بث أفكارها ورؤاها، بل عملت فرنسا على منع بثها، لأنها قدمت مسلسلاً عن جرائم إسرائيل، فلماذا الوقوف هنا ضد حق التعبير؟!

في أمريكا تم منع عرض مجموعة من الأفلام الوثائقية التي قام بإعدادها الصحفي البريطاني البارز (روبرت فيسك)، لأنها أثارت غضب اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، الذي هدّد شبكة التلفزيون بسحب الإعلانات ذات المردود المادي منها.

أما إذا سألت عن سرّ هذا الغضب فيأتيك الجواب أن مجموعة تلك الأفلام كان عنوانها (جذور غضب المسلمين)، حيث اتهمت الصهيونية بأنها السبب الرئيس وراء نقمة المسلمين على الغرب. ولاحظ أن (فيسك) حاصل على جائزة الصحافة البريطانية لعام 1995م كأحسن صحفي بريطاني قادر على عرض الأخبار السياسية الدولية وتحليلها.

وفي عام 1986م لم يستطع المؤلف (جورج جيلبرت) أن يجد ناشراً ليعيد طباعة كتابه (الانتحار الجنسي) على الرغم من أن كتب (جيلبرت) المنشورة في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي تصدرت قوائم المبيعات العالمية. والسبب في إغراض الناشرين هو الاحتجاج الصاخب الذي قامت به رائدات حركة تحرير المرأة ضده؛ لأن «اختلافات الرجل عن المرأة لا ينبغي حتى أن تدرس» حسب تعبير إحدهن في مقابلة عرضت على شبكة (ABC) الأمريكية.

أما الممثلة البريطانية الشهيرة (فانيسا ريد جريف) فلم يسمح لها بأداء دورها في مسرحية كوميدية بريطانية أثناء عرضها في الولايات المتحدة بسبب تصريحاتها المعادية للتدخل الأمريكي ضدّ العراق في حرب الخليج.

الجدير ذكره أن أعمال (جريف) كثيراً ما تتعرض للمقاطعة أو الإلغاء من العرض في الولايات المتحدة بسبب آرائها المعادية للصهيونية وسياسات الدولة العبرية.

في بريطانيا يتم التعامل مع المقدّسات وفق قانون خاص يسمى (BIASPHEMY LAW) الذي يمنع سب المقدّسات؛ إذ يسري العمل بالقانون في كل من إنجلترا وويلز. ولكنه خاص بالمقدّسات المسيحية وحدها. ولذلك فعندما أعلن المخرج الدانماركي (جينز ثور سن) اعتزاه إخراج فيلم في إنجلترا عن الحياة الجنسية للمسيح فقد أدى ذلك إلى موجة غضب عارمة في المؤسسات الدينية الأوروبية وعلى رأسها الفاتيكان وأسقفية (كانتر بري)، وعلى الفور قام رئيس الوزراء البريطاني حينذاك (جيمس كالاهاان) بالتحذير من أن أي محاولة لإخراج ذلك الفيلم في إنجلترا سوف تكون عرضة للمحاكمة تحت طائلة قانون (سب المقدّسات) مما أثنى المخرج عن إتمام إنتاج الفيلم.

وفي يونيو 1976م قامت صحيفة (Gay News) الخاصة بأخبار الشواذ جنسياً من الرجال بنشر قصيدة للشاعر البريطاني (جيمس كيركوب) يصف فيها المسيح - عليه السلام - في أوضاع غير لائقة، مما أثار غضب اتحاد المشاهدين والمستمعين الإنجليز، الذي يتولى الرقابة الشعبية على كل ما ينشر في الصحف أو يعرض في وسائل الإعلام والأفلام السينمائية، وقامت رئيسة الاتحاد بمقاضاة رئيس تحرير الصحيفة والشركة التي تملكها وتتولى نشرها بتهمة سب المقدّسات.

وفي إيطاليا يمنع عرض الفيلم الأمريكي (الإغراء الأخير للسيد المسيح)، لما فيه من استشارة مشاعر المسيحيين، لذا لم يُكْتَفَ بمنع عرضه فقط في العديد من البلاد الأوروبية بل قُدِّم مخرج الفيلم في مهرجان للمحاكمة في روما بسبب الفيلم.

وفي فرنسا يقر مجلس الشعب الفرنسي قانون فاييوس . جيسو في عام 1990م الذي يحظر مجرّد مناقشة حقيقة وقوع الهولوكست في الحرب العالمية الثانية. وقد عوقب المفكر الفرنسي الشهير (روجيه جارودي) عام 1998م بسبب كتاب (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية)، وحكم عليه بغرامة (20) ألف دولار.

الحرية وامتحان العلمانية:

والواقع أن أزمة حدود حرية التعبير التي أنبأت عنها الأزمة المتعلقة بالرسومات الساخرة وما نشأ عنها من تضارب في وجهات النظر في الداخل والخارج من مجالنا التداولي صورة من صور الصراع في القرن الجديد لكن هذه المرة بين الدين بما هو اختيار إنساني مقدس من جهة الانتساب بحرية له وبين الحداثة بما هي ممارسة انتهاك مستمر للحق في الاختيار حين يتعلق الأمر بالمقدسات التي هي محل تعظيم عند أصحابها. هذا في الوقت الذي ينبغي التحقق بأن الحداثة العلمانية لا تحفظ حرمة الأديان، بقدر ما ينبغي أن نتحقق بأنه ليست كونية قيم الحداثة الغربية كونية إطلاقية، وإنما كونية سياقية تداولية ينبغي فهمها في إطارها لا خارجه.

إن المعركة ولا شك ستستمر إلى أمد بعيد وسيكون مدار عدد لا بأس به من التشنجات والاضطرابات مادامت الأصولية الحداثيّة على نهج استسخاف المعتقدات والهزاء بأنساقها المعرفية والتمثيلية¹). ويمكن أن نقول بأن العالم المعاصر يشهد في مناطق متعددة، منذ أكثر من سبعة عقود أو ما يناهزها انبعاثاً للهويات الدينية لم يعرفها منذ أكثر من قرن من الزمان، وتعتبر هذه الظاهرة عن نفسها بتوترات ساخنة ونزاعات طائفية وإثنية وعرقية داخل البلد الواحد أو بين بلدان متجاورة، كما تجد تجلياتها في الصراع

¹ - يراجع: سري نسبية : الحرية بين الحد والمطلق ، مرجع سابق، ص 52-53.

السياسي والاجتماعي الدائر في أكثر من مكان وإلباس هذا الصراع مضمونا طائفيا أو دينيا، ولا ينبغي أن نغفل عما أفرزته الظاهرة أيضا من ثقافات خاصة ونظريات كان أبرزها صراع الحضارات الراهن والمقبل بديلا لصراع فكري سابق بين الرأسمالية والشيوعية.

وعلى الجملة، فإن القرن الجديد فيما نعتقد وإن كانت للهيمنة فيه للمادة وفلسفاتها القطيعة الانفصالية فإن فلسفة الروح الإتصالية قادمة بتؤدة ورشد تبدع في صعود تنفض عنها غبار السنين هنا وهناك لتأخذ محلها من إعادة الاعتبار لهذا الكائن الروحاني اليهودي "الإنسان".

إن المسرح قد أُعد باللفظ الأزلي تمهيدا للدخول العظيم ولو من باب الاغتراب الثاني بعد اغتراب البداية المحمدية⁽¹⁾، الإنسان راجع لدفع المحبة والمعرفة لدفع العبادة... راجع للحرية الحقيقية حين ينعق من أنه ويخرج من حوله وقوته ويفارق آلهته التي كانت تسترقه من دون الله ليعلن دخوله في حضرة الحق جل جلاله بالعمل والعمارة وتلكم الحرية الحقة. فالحرية كما نطق بها ألسنة الشرائع الإلهية حقيقة ومجازا هي أن تكون بالإرادة غنيا عن كل ما سوى الله. وأن تنطلق من القيد الحسي في عالم الملك إلى الانشراح المعنوي في عالم الملكوت.

¹ - مصداقا لقول النبي صلوات الله وسلامه عليه "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله: قال صلى الله عليه وسلم الذين يصلحون ما أفسد الناس" يراجع صحيح مسلم: 130/1. وسنن الترمذي: 18/5